



إيبارشية جنوبي أمريكا للأقباط الأرثوذكس

ديسمبر ٢٠٢١ م

الرسالة الشهرية للرهبان والراهبات

الرهبنة هي حياة استشهاد

قال أحد الشيوخ ذات مرة: "لقد عانى الشهداء من الموت الذي جاء إليهم، لكن الرهبان يموتون كل يوم عن طيب خاطر عندما يعيشون ندورهم بأمانة. الرهبنة هي الموت الحقيقي للذات التي هي أكبر من أن تُقتل لأن الرهبان وضعوا حتى الموت أنفسهم والأنا الخاصة بهم كل يوم".

يسفك الشهيد دمه للمسيح دفعة واحدة، ويقدمه الراهب قطرة قطرة من خلال الزهد وحياسة الجهاد، والتسبيح المستمر لله. وكما يقول القديس أوغسطينوس: أولئك الذين أصبحوا أتباعاً حقيقيين للمسيح مخلصنا يصلبون أجسادهم، مشغولين دائماً بالأعمال والجهاد من أجل التقوى، وبإماتة الجسد. الانتصار على الأهواء هو استشهاد روحي ذاتي. الراهب شهيد حي تخلص عن مجد العالم الزائل، إنه شهيد الحب الإلهي، يدخل قلايته ويقدم نفسه ذبيحة كل يوم، بل وحتى في كل دقيقة. حياة الراهب هي حياة التوبة والصلاة وإنكار الذات في السهر والدموع. المسيح يسأل، إذن، أن ننكر أنفسنا بمعنى أن ننكر الذات الزائفة - الأنا الأنانية والرغبات الشهوانية التي يبدو أنها ما نحن عليه ولكنها مجرد تشوهات تخفي وجودنا الأعمق والأصدق. يطلب المسيح أن ننكر أنفسنا حتى نتمكن من العثور على أنفسنا. يقول لنا: "الأنا يجب أن تذهب، أهواؤك ورغباتك الأنانية لا يمكن أن تسود فيك إذا كنت سأسود على قلبك". طريق إنكار الذات هو طريق الصليب. تجريد الأهواء من قوتها ليس سهلاً ولا عديم الألم. وهو ليس صفقة لمرة واحدة، بل جهاد مستمر مدى الحياة. إذ يتم الكشف عن الذات الحقيقية لدينا، فإن النفس الزائفة والأنانية تجاهد باستمرار لكي تغلب، والقلب هو ساحة المعركة حيث نخوض هذه الحرب.

يقال إن القديس أنطونيوس الكبير غادر الصحراء إلى الإسكندرية لدعم الشهداء في المحاكمات في المحكمة تحت قيادة دقلديانوس، وأنه بعد استشهاد القديس بطرس خاتم الشهداء، عاد إلى دير لاسنتناف استشهاده اليومي. لقد مُنح لنا شرف هذا الاستشهاد طوال حياتنا بموتنا اليومي الطوعي، شاهدين للمسيح في الحب والمجد، من أجل ذلك الذي مات من أجلنا. بكل أمانة لا يوجد أي عمل يضاهي فعل الموت الإرادي. في هذا الفعل، يصلب الإنسان نفسه على صليب المسيح. كل عمل من

أعمال الإنسان إما ينتهي بالموت أو يتحول إلى موت باستثناء صلب الذات الإرادي، الذي ينتهي في الحياة ويتحول إلى حياة. أقول لكم سراً، في كل مرة يموت فيها إنسان عن نفسه، في كل مرة ينكرها ويتخلى عنها تكريماً للصليب المسيح ومحبة لشخصه الفدائي، فإنه يلتصق أكثر بالرب المصلوب. الرهبان هم الذين يصعدون على الصليب يومياً وبارادتهم.

أيها الإخوة الأحباء، إن كل شهيد مات عن نفسه مرة واحدة ومن أجل الإيمان. حافة السيف، الحمراء بالدم، تشهد على ذلك. الراهب المخلص لزيه الرهباني ولدعوته الإلهية يقدم نفسه ذبيحة بسيف الطاعة لكلمة الله كل يوم. ليس مرة واحدة فقط، ولكن عدة مرات. لذلك كان من الضروري أن تذبح الذبيحة أولاً على يد كاهن. وبعد أن تموت، يتم تقطيعها إلى قطع وتملح بالملح، ثم توضع على النار. إلا إذا كان الكاهن يذبح الحمل أولاً، فإنه لا يملح ولا يتم تقديمه للرب كذبيحة محرقة. وبالمثل، يجب على نفوسنا أيضاً أن تقترب من الكاهن الأكبر المسيح لكي تذبح من قبله وتموت عن أفكارها الخاصة والحياة الشريرة التي كانت تعيشها، أي أن تموت عن الخطيئة. وهكذا، يجب أن تطرد عنها حياة الأهواء الشريرة. وكما أن الجسد، بعد أن تتركه النفس، يموت ولا يعود له حياة فيه كما كان من قبل (لا يسمع ولا يمشي)، كذلك بعد أن يميت المسيح، الكاهن السماوي، بنعمة قوته، حياتنا في العالم، فإنها تموت عن حياة الفساد التي عاشتها سابقاً. إنها لا تعود تسمع ولا تتكلم ولا تتحرك في ظلام الخطيئة لأن الأهواء الشريرة التي امتلكت النفس تركتها بنعمة.

وهكذا، يهتف الرسول قائلاً: "قد صلب العالم لي وأنا للعالم" (غل ٦: ١٤). لذا فإن النفس التي ترغب في العيش مع الله في راحة وضوء أبدي يجب أن تقترب، كما قلنا أعلاه، من الكاهن الأعلى الحقيقي، المسيح، وأن تُذبح وتموت عن للعالم وعن حياتها السابقة من الظلام والشر وأن تنقل إلى حياة أخرى للدخول في تواصل مع الله. عندما يموت شخص ما في مدينة، فإنه يكون غير قادر على سماع أصوات الآخرين من حوله. إنه لا يسمع محادثتهم ولا الأصوات التي يصدرونها، لكنه يموت تماماً ويتم نقله إلى مكان آخر حيث لا توجد أصوات، ولا أي شيء من جلبة المدينة. بالمثل فإن النفس بعد أن تُذبح وتموت عن مدينة الأهواء الشريرة حيث عاشت مرة واحدة في وقت سابق، فإنها لا تعود تسمع في داخلها صوت الأفكار مظلمة. لا تعود تسمع المحادثة وضجيج الحجج التافهة أو الحشد الصاخب لأرواح الظلام. لأنها تنتقل إلى المدينة المليئة بالخير والسلام، إلى مدينة النور الإلهي. هناك تعيش وتنصت، وهناك تتحدث، وتتكلم، وتعقل. هناك تؤدي الأعمال الروحية اللائقة جداً بالله. دعونا، لذلك، نصلي لكي نموت بقوته ونموت عن عالم الشر المظلم، ولكي تنطفئ فينا روح الخطيئة. دعونا نلبس نفس الروح السماوي ونقبلها، وننتقل من شر الظلام إلى نور المسيح.^٦

^٦ القديس مقاريوس، العظات الروحية الخمسين والرسالة العظيمة.

وهكذا يتمتع بحياة أخرى ليست من هذا العالم، ويصرخ من أعماقه منتصراً مع القديس بولس، "من أجلك نُمات كل النهار. قد حُسبنا مثل غنم للذبح" (رو ٨: ٣٦). إذا كان هناك امتياز باطني يميز الحياة الرهبانية على وجه الخصوص عن أنواع أخرى من الحياة، فإنه يكمن في الفرص التي توفرها هذه الحياة للموت الإرادي عن العالم طوال النهار والليل، وحتى طوال الحياة. وقد أتقن الآباء هذا بطرق ووسائل مختلفة. الراهب هو الرجل الذي يعيش صلبه الشخصي بكل تصميم ورهبة، بكل مثابرة وإبداع، بكل ضبط نفس وصمت. راحته الوحيدة تأتي من خلال تحقيق الموت الكامل، والسلام الوحيد له في إبادة كبريائه. ما يتبقى فيه بدلاً من كل ذلك هو الحب الصادق غير المغشوش الذي يُنبِت فرح المسيح. مثل هذا الفرح يدوس الموت تحت الأقدام ولا يهتم بثناء وإعجاب الناس. الاستشهاد هو عملنا اليومي (١ كو ١٥: ٣١). تحتفل الكنيسة بذكرى الشهداء مرة واحدة في السنة لتكريم أرواحهم، ومع ذلك نحن نعيش الاستشهاد على مدار ٢٤ ساعة في اليوم طوال حياتنا. يقال عن كثير من الشهداء، أنهم عندما كانوا يلمون مسبقاً، إما بالوحي أو بالمعلومات التي تلقوها من أحد أصدقائهم، اليوم الذي كانوا سيحصلون فيه على تاج الشهادة، لم يكونوا يتذوقون أي شيء في الليلة السابقة، ولكن من المساء حتى الصباح كانوا يقفون في سهر في الصلاة، ممجدين الله ومرتلين المزامير، والتراتيل، والأغاني الروحية، وكانوا يتطلعون إلى تلك الساعة بفرح وابتهاج، في انتظار لقاء السيف هناك بسرعة كممثل الذين يستعدون لحفلات الزفاف. لذلك دعونا نكون يقظين أيضاً، نحن المدعوون إلى استشهاد غير مرئي حتى نتلقى تيجان التقديس، حتى لا نعطي أعداءنا أبداً علامة إنكار بأي عضو أو جزء من جسدنا، ولكن نجعل حواسنا الخارجية وأفكارنا الداخلية ترتدي سلاح الله الكامل. دعونا نأخذ هذا الإكليل بقوة وندخل في مجده مع الشهداء المقدسين، ونحرك خصومنا بدهشة؛ لأنه لا أحد يأخذ الإكليل بدون تعب. ٧.

نحن كرهبان نعيش هذا الاستشهاد المخفي عندما نعيش في طاعة، عندما نقبل التجارب، عندما نغفر لإخوتنا، عندما نميت أهواءنا، عندما ننكر أنفسنا. لقد قال القديس موسى إن من يحتمل الظلم من أجل الله يعتبر شهيداً، ويؤكد القديس يوحنا الدرجي ذلك بقوله: "طوبى لمن يُشتم ويحتقر كل يوم من أجل الرب، وهولا يزال يضبط نفسه. إنه سيكون في جوقة الشهداء وسيتحدث بألفة مع الملائكة. طوبى للراهب الذي يفكر في نفسه عندما يُهان ويزدرى به. طوبى للذي يميت إرادته حتى النهاية والذي يترك الاعتناء بنفسه لأبيه الروحي في الرب. إنه سوف يوضع على يمين المصلوب^٨. سلم نفسك للموت في جهادك بدلاً من أن تعيش في عدم إهتمام. لأن الشهداء هم ليسوا فقط أولئك الذين انتظروا

^٧ القديس إسحق السرياني، العظات النسكية، عظة ٣٧

^٨ يوحنا الدرجي، السلم، الخطوة ٤ على الطاعة

الموت لإيمانهم بالمسيح، ولكن أيضاً أولئك الذين يموتون من أجل الحفاظ على وصاياها^٩. ألا تتوق الآن للإستشهاد؟ ألسنت حزيناً الآن لعدم وجود فرصة للإستشهاد في الوقت الحاضر؟ بل على العكس من ذلك، دعونا أيضاً ندرّب أنفسنا على فرصة الإستشهاد. لقد احتقروا الحياة وأنت، فلتحتقر الرفاهية! لقد ألقوا بجثثهم في النار. أنت، الآن إلقي المال في أيدي الفقراء! لقد داسوا على الفحم المحترق. أنت، أطفئ نار الشهوة! هذه الأمور صعبة، ولكنها مجزية أيضاً. لا تركز على العقبات الحالية، ولكن على الفوائد المستقبلية. ليس على العذابات الحالية، ولكن على البركات المتوقعة. ليس على المعاناة، ولكن على الجوائز. ليس على الأتعاب، ولكن على الأكاليل. ليس على العرق المسكوب، ولكن على المكافآت. ليس على الأحزان، ولكن على العوائد. ليس على النار الخارقة، ولكن على الملكوت الذي ينتظرنا. ليس على الجلادين الذين يقفون في كل مكان، ولكن على المسيح المتوج. لا ننظر إلى الثروة التي تتلاشى، ولكن لتركز على الكنز الذي يزداد. إذا كنت تصوم، فلا تفكر في عدم الراحة من الصيام، ولكن في الحرية التي تأتي من عدم الراحة. إذا قضيت ليلة بلا نوم في الصلاة، لا تفكر في البؤس الذي يأتي من قلة النوم، ولكن الدالة التي تنتج عن الصلاة وتعكس مدى روعتها، في أعماق الليل، عندما يكون كل إنسان وحيوان بري وطائر نائماً، عندما يكون هناك الصمت الأكثر عمقاً، حيث تكون أنت وحدك مستيقظاً تتحدث بدالة مع سيد الجميع. إذاً النوم حلو؟ ولكن لا شيء أحلى من الصلاة. إذا كنت تتحدث معه وجهاً لوجه، يمكنك إنجاز الكثير، حيث لا أحد يشغلك أو يمنعك من صلاتك. يوجد لديك أيضاً الوقت الخاص بك فيما يتعلق بالحصول على ما تريد. إذاً، أنت تتقلب مستلقياً على فراش ناعم، ولا تتحمل فكرة النهوض؟ تأمل في الشهداء الممددين اليوم على السلم الحديدي، ليس مع فراش ملقى تحتهم، ولكن الفحم المشتعل المتناثر تحته^{١٠}.

الرهبانية كحياء إستشهاد مبنية على الحب ومن أجل هذا الحب نقدم أنفسنا على مذبحة. غننا نسلم أجسادنا حتى الموت ونحن فرحين، لأننا بذلك سنجد شيئاً نضحي به لحبيبنا. نحن نركض بمثابرة على طول طريق الأحزان، حاملين عذابات قلوبنا. نحن نصلب أعضائنا وأهواءنا قانعين. نشرب مرارة المر بسرور. أيها الحبيب! لقد سلبتنا كل شيء حتى أنفسنا. لم نعد نشعر بأننا أحياء، لأنك أنت من عاش فينا. "من سيفصلنا عن محبة المسيح؟ أشدة أم ضيق أم اضطهاد أم جوع أم عري أم خطر أم سيف؟ كما هو مكتوب: إننا من أجلك نمات كل النهار، قد حُسبنا مثل غنم للذبح. فإني متيقن أنه لا موت ولا حياة ولا ملائكة ولا رؤساء ولا قوات ولا أمور حاضرة ولا مستقبلية ولا علو ولا عمق ولا خليفة أخرى تقدر أن تفصلنا عن محبة الله التي في المسيح يسوع ربنا" (روا: ٣٥-٣٩).

^٩ القديس إسحق السرياني، العظات النسكية، العظة ٣
^{١٠} القديس يوحنا ذهبي الفم، عظة عن الشهداء